المحاضرة رقم:8

قضية السرقات الشعرية في النقد القديم

تُعدّ قضية السرقات الشعرية من أكثر القضايا النقدية إثارة للجدل في التراث العربي، إذ ارتبطت بمفهوم الأصالة والإبداع، وبمحاولة تمييز الشاعر المبدع عن الشاعر المقلّد. وقد شغلت هذه القضية أذهان النقاد منذ العصر الجاهلي، وازدادت حضوراً في العصرين الأموي والعباسي مع اتساع حركة التأليف والنقد.

أولاً: مفهوم السرقة الشعرية:

السرقة الشعرية هي أن يأخذ الشاعر من غيره معنى أو لفظاً أو تركيباً أو صورة فنية، ثم يقدّمه في شعره منسوباً إليه دون إشارة إلى مصدره.

غير أن النقاد القدماء اختلفوا في ضبط مفهومها، فميزوا بين:

- **السرقة المذمومة:** الأخذ الحرفي أو المطابق بحيث يفقد الشاعر طابعه الخاص.
- **الاقتباس أو الأخذ المحمود:** تطوير المعنى أو إعادة صياغته بشكل يُظهر تفوق الشاعر اللاحق.

ثانياً: تطوّر الاهتمام بالسرقات في التراث العربي:

العصر الجاهلي:

لم تكن هناك أحكام نقدية واضحة، ولم يظهر مصطلح "السرقة" اصطلاحاً، لكن النقد كان قائمًا على الذوق وتفضيل المبتكر على التقليدي. كان الشاعر يُمتحَن بقوّة حفظه وقدرته على النظم، وكان الجمهور في الأسواق– كعكاظ وذي المجاز– يميز بين ما يسمع لأول مرة وما يشبه ما سبق.

ومن أسباب غياب مفهوم السرقات في هذا العصر:

اعتماد الشعر على الرواية الشفوية وعدم تدوين النصوص. وتشابه الموضوعات (الفخر، الغزل، الرثاء). وعدم وجود تراكم نصي كبير يسمح بالمقارنة التفصيلية.

العصر الأموي:

ازداد التنافس بين الشعراء مع انتشار النقائض، فظهرت بذور المقارنة بين المعاني وتقويم جودة الأخذ.

العصر العباسي:

عصر النضج النقدي، إذ شاعت المؤلفات التي درست السرقات، وظهر نقاد وضعوا قواعد دقيقة للأخذ والتحوير، وفيه سُجِّلت أشهر المناقشات بين النقاد حول هذه القضية.

ثالثاً: أهمّ النقاد الذين تناولوا السرقات الشعرية:

1- ابن سلّام الجمحي (ت 231هـ):

من أوائل من أشار إلى السرقات في كتابه "طبقات فحول الشعراء". رأى أن الأخذ قد يكون دليلاً على قوة الشاعر إذا كان تحسيناً لا تكراراً.

2- الجاحظ (ت 255هـ):

في "البيان والتبيين" و"الحيوان" تحدث عن التداخل بين المعاني، وشدّد على أن المعاني مشتركة بين الناس، وأن التميّز يكون في الصياغة والأسلوب.

3- ابن قتيبة (ت 276هـ):

في "الشعر والشعراء" نبّه إلى أن المعاني قد تتكرر بحكم طبيعة الموضوعات الإنسانية، وأن المهم هو جودة الأداء.

4- الآمدي (ت 370هـ):

في كتابه "الموازنة بين الطائيين" درس ما أخذه المتنبي من البحتري، وميّز بين السرقة الصريحة والمجاز المقبول.

5- القاضي الجرجاني (ت 392هـ):

في الوساطة بين المتنبي وخصومه دافع عن المتنبي، ورأى أن تطور المعنى يدل على عبقرية الشاعر لا على سرقته.

6- عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ):

منظّر "نظرية النظم." رأى أن القيمة في العلاقات بين الكلمات، وأن السرقة لا تقاس بمجرد التشابه اللفظي بل بمستوى الإبداع في تركيب الكلام.

رابعاً: أنواع السرقات الشعرية عند النقاد القدماء:

السرقة اللفظية:

الأخذ الحرفي للبيت أو جزء منه. وتُعدّ من أسوأ أنواع السرقات لأنها لا تدل على إبداع الشاعر .

السرقة المعنوية:

أخذ المعنى مع تغيير اللفظ. ورأى البعض أنها مقبولة إذا طوّر الشاعر المعنى.

الانتحال:

نسبة القصيدة أو الأبيات إلى شاعر آخر. وكان شائعاً في العصر الأموي، خاصةً بعد ظهور صراع العصبيات القبلية.

الأخذ مع التحوير:

استعمال الفكرة الأصلية ولكن بأسلوب جديد أو في سياق مختلف. اعتبرها كثير من النقاد دليلاً على قدرة الشاعر.

الإلمام والتضمين والاقتباس:

تضمين أبيات أو أجزاء من شعر الآخرين. وقد يُعد تلميحاً فنياً إذا كان واضحاً للقارئ.

خامساً: موقف النقاد من قضية السرقات:

الموقف المتشدد:

يرى أن الأخذ سرقة مهما كانت درجته، مثل ما نجده عند بعض نقاد القرن الرابع.

الموقف المعتدل:

يُفرّق بين الأخذ المذموم والمحمود، ويرى أن الشعر بناء تراكمي، كما عند الجاحظ والجرجاني.

الموقف المتساهل:

يعتبر أن التشابه أمر طبيعي، وأن الموضوعات قليلة والمعاني مشتركة، وأبرز من قال بهذا ابن قتيبة.

سادساً: نماذج تطبيقية للسرقات:

من العصر الجاهلي:

قول امرئ القيس:

وقربتُها نحوَ الغروبِ فنازعتْ=فقلتُ لها: قفي فقد ذهبتْ شمسُ

ثم يأتي عنترة بمعنى قريب في قوله:

ولقد ذكرتكِ والرماحُ نواهلٌ=مني وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي

التشابه هنا في الفكرة العامة (التذكّر في لحظة صعبة)، لكنه لا يُعد سرقة لأن السياق والوظيفة مختلفان.

من العصر الأموي: (40–132هـ)

مع اتساع الدولة وتغيّر الذائقة، ظهر وعي نقدي أولي بقضية الأخذ الشعري. كان التنافس بين جرير والفرزدق والأخطل في النقائض سببًا رئيسًا لظهور المقارنات، وبدأ الناس يتتبعون مشابهات الأبيات.

ومن مظاهر السرقات في العصر الأموي تكرار المعاني بسبب طبيعة النقائض والمبارزات الشعرية. والتأثر بالطبع القبلي، ومعارضة قصائد خصوم القبيلة بطرح معانٍ مشابهة أو محوّرة، ومن أمثلة ذلك:

جرير يقول:

إن العيــونَ التــي فــي طرفهــا حَــوَرٌ قتلنَنــا ثــم لــم يحيِــينَ قتلانــا

فجاء بشار بن برد لاحقًا يقول:

يــا قــومِ أذنــي لــبعضِ الحــي عاشــقةٌ والأذنُ تعشــقُ قبــلَ العــينِ أحيانــا

رغم عدم التطابق، فقد لاحظ النقاد التأثير الأسلوبي الذي ينتقل من جرير إلى بشار، مع اختلاف في التصوير.

من العصر العباسي الأول (132 – 232 هـ):

العصر الذي بدأ فيه التدوين النقدي المنهجي، وبرزت دعوات التجديد في الشعر.

ملامح المرحلة:

الاتصال بالثقافات الفارسية واليونانية، وكثرة الشعراء وتطور الصناعة الشعرية، وبداية ظهور مصطلحات مثل "السرقة" و"الانتحال"، وأبرز نقاد هذه المرحلة: ابن سلام الجمحي، الجاحظ، ابن قتيبة. ومن أمثلة السرقات الشعرية ما يلي:

– قال أبو نواس في وصف الخمر:

دع عنــكَ لــومي فــإن اللــومَ إغــراءُ وداونــي بــالتي كانــتْ هــي الــداءُ

– ثم قال البحتري بعده:

وإذا اشــتفى مــن دائــهِ بســقامِه فــدعِ الهــوى يســعى بــه ســعيانه

لاحظ النقاد تشابه الفكرة: الداء من الدواء نفسه، لكن البحتري قدّمها في سياق رقيق مختلف.

من العصر العباسي الثاني (232 – 450 هـ)

يعد هذا العصر العصر الذهبي لقضية السرقات: مع ظهور المتنبي، البحتري، وأبي تمام. وكذلك ظهرت أهم كتب النقد التي درست السرقات بعمق.

ومن خصائص المرحلة: نضوج الوعي بنظرية "تناسل المعاني". والتمييز بين الأخذ الحسن والأخذ القبيح. وظهور "الموازنة" و"الوساطة".

ومن أمثلة أشهر السرقات فيها:

1– أبو تمام والمتنبي:

أبو تمام:

الســيفُ أصــدقُ أنبــاءً مــن الكتــبِ فــي حــدّهِ الحــدُّ بــين الجــدِّ واللعــبِ

المتنبي:

الخيــلُ والليــلُ والبيــداءُ تعرفنــي والســيفُ والــرمحُ والقرطــاسُ والقلــمُ

لاحظ النقاد أن المتنبي حاول تحويل فكرة السيف بوصفه حُجّة إلى تجسيدٍ للذات الفاعلة.

2– البحتري وأبو تمام:

أبو تمام:

إقــدامُ عمــروٍ فــي ســماحةِ حــاتمٍ فــي حلــمِ أحنــفَ فــي ذكــاءِ إيــاسِ

البحتري:

فتًــى كلمــا فاضــت يــداهُ علــى امــرئٍ أحــالَ لــهُ المعــروفَ مــن عُسْــرِه يُسْــرًا

اتهم البحتري بالأخذ من تركيب أبي تمام في تعداد الصفات، وإن كان المعنى مختلفاً

.ما بعد القرن الخامس الهجري (عصور الانحطاط حتى العثمانيين):

هذه المراحل شهدت: تحول دور السرقات من موضوع نقدي حيّ إلى تتبّع أسانيد وتقليد.

إضافة إلى كثرة النظم على البحور نفسها، واشتداد التقليد. ودخول المؤثرات العجمية والتركية والفارسية. وكثرت المعارضات الشعرية، مثل معارضة البوصيري لأبي تمام، ومعارضة شوقي لاحقًا للبوصيري. وظهور أبيات مطابقة تقريبًا بسبب اعتماد الشعراء على دواوين من سبقوهم.

– مثال مشهور بين المتنبي وأبي تمام:

قال أبو تمام:

وإقــدامُ عمــروٍ فــي ســماحةِ حــاتمٍ فــي حلــمِ أحنــفَ فــي ذكــاءِ إيــاسِ

وقال المتنبي:

تــرى الجــودَ فــي أعلــى خــلالٍ تــراهُ فــي نــدى حــاتمٍ فــي بــأسِ حيــدرةَ

النقاد بحثوا في العلاقة بين النصين، فرأى بعضهم أنّ المتنبي حسّن المعنى، ورأى آخرون أنه أخذ الفكرة العامة لا غير.

سابعاً:

خاتمة:

قضية السرقات الشعرية ليست مجرد تتبّع لعيوب الشعراء، بل هي أداة لفهم مفهوم الإبداع عند العرب. فالنقاد القدماء أدركوا أن الإبداع لا يعني الابتكار المطلق، بل القدرة على تجديد المعاني وصوغها في نسق جديد متميّز. وقد أسهمت هذه المناقشات في بناء نظرية نقدية عربية رصينة ما زالت ذات قيمة حتى اليوم.

ومن التطور التاريخي يتبيّن أن قضية السرقات الشعرية لم تكن اتهامًا أخلاقيًا بقدر ما كانت نافذة لفهم تطور الإبداع الشعري. فقد انتقل النقد من مفهوم التراث المشترك إلى وعي بنظرية "التفاعل النصي".